منك . إن موسى عليه السلام يأمر قومه بأن يستعينوا بالله ، ويصبروا على ما ينالهم من بطش فرعون وظلمه .

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمّنهم فى الأرض ويمكن لهم فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق . ولكن ماذا كان موقف قوم موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، والنصر لهم ؟ . نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أوذينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، وبعد أن جئت هانحن أولاء نتلقى الإيذاء . كأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً . إذن هم نظروا للابتلاءات التى يجريها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى المنة والمنحة والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك هزمهم موسى ، وكان يجب أن يكون ذلك تنبيها لهم لقدر عطاءات الله ، هم يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسبوا أيام الرخاء .

وقوله : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ يدل على أنهم سوف يخونون العهود ، ويفعلون الأشياء التى لا تتناسب مع هذه المقدمات . وفى الإسلام نجد عمرو بن عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رغيف أو رغيفان ، فقال : التمسوا رغيفاً لابن عبيد . فرد عليه العامل : لا نجد . فلما ولى الخلافة وعاش فى ثراء الملك ونعمته دخل عليه ابن عبيد وقال : لقد صدق معكم

الحق يا أمير المؤمنين فى قوله :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقد قال موسى لقومه هذا القول بعد أن عايروه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا ، أى بالتذبيح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكأن مجيئك لم يفدنا شيئاً لأننا مقيمون على العذاب الذى كنا نُسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة فى أن تكون موجوداً ؛ بدليل أن الذى حدث بعدك هو الذى حدث قبلك .

ولم يلتفتوا إلى أن الإيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكأن موسى يرد عليهم بأن أسباب الإيذاء ستنتهى ، وأن الله سيهلك عدوكم الذى آذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد . ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة ؛ بل يزيدكم بأن يستخلفكم فى الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكان هنا أمرين : الأمر الأول سلبى : وهو إهلاك العدو ، والأمر الثانى إيجابى : وهو استخلافكم فى الأرض وهذا أمر لكم ، ووعد من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تتنبهوا إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم فى الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة ؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى ﴿ عسى ﴾ فهى كلمة ـ كما يقول علماء اللغة ـ تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول . وهناك فرق بين التمنى وبين الرجاء . فالتمنى أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون فى الحصول عليه عسر ، ولكنك تريد ـ فقط ـ بالتمنى إشعار حبك له ، فأنت إذا قلت : ليت الشباب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حبك لمرحلة الشباب . وقصارى ما يعطيه أن يعلمنا أنك تحب هذا المتمنَّى . لكن هل يتحقق أو لا يتحقق . . فهذه ليست واردة .

لكن « الرجاء » شيء محبوب يوشك أن يقع ، وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمنى . وأداة التمنى « ليت » ، وأداة الرجاء « عسى » . وحين يكون بعد « عسى » ما يُرْجَى فلذلك مراحل تتفاوت بقوة أسباب الرجاء فى الوقوع . فأنا مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إلىّ أنا ، لأنّ إكرامى لك يقتضى بقائى ، وعدم تغير نفسى من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسى قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامى لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغيار ، ومادمت صاحب أغيار فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكنى لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسى عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل فى حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى أن يكرمك فلان وهو مساويه ، فهذا أمر مستبعد قليلاً ؛ لأن من يقول ذلك لايملك أن يقوم فلان بإكرام المساوى له ، لأنه صاحب أغيار .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يعجزه شيء عن إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك ؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فسبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أويستعصى أو يتأبى عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : ﴿ عسى ربكم ﴾ فقد انتهت المسألة وتقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هى : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن يعد الحق بالإكرام أو بالرحمة .

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

والكلام كما نراه هو من موسى ، ولايقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء ؟ . نعلم أن موسى رسول أرسله الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ .

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمفردها ، أما أن يهلك الله عدوى ويعطينى الحق مكانة عدوى العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا ما سوف يحدث يوم القيامة ؛ لأن الحق يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فمابالك بمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ . لقد نال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هى : ﴿ ويستخلفكم فى الأرض ﴾ . لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون ؟ . هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها ؟ فالإنسان ظلوم كفار .

وكلمة « ينظر » إذا جاءت على الإنسان فُهِم المراد منها أى يراك بناظره . وإذا أُسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حدقة عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو ـ سبحانه ـ عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ فى مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه . وعميد الكلية يقول له : ما رأيك ؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثانى لابد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذى رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت فى الحكم ؛ ولو مكنتنى من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدى الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب فى الامتحان .

إن الله سبحانه حين يقول : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ . هو سبحانه لاينظرها ليعلمها ـ حاشا لله ـ فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكن يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم أزلاً بكل من يهدى ومن يضل ، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن فى الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن فى

النار لا تسع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسع كل الخلق ، ولم يحكم بعلمه فى هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً آمنتم فلكم كلكم أماكن فى الجنة . وعلى فرض أنكم ـ والعياذ بالله ـ كفرتم فلكم أماكن فى النار ، وسبحانه لن ينشىء شيئاً جديداً ، بل أعد كل شىء وانتهى الأمر .

وحين يأتى أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلن لأهل الجنة : أورثتموها وخذوها أنتم :

﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وهى ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها . فإياك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً .لا . إنه العليم أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وسبحانه يعلم أزلاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذى يكون حجة على الخلق . وهنا فى الآية التى نحن بصددها ثلاثة شياء : أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن يستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون . ونحقق فيما تحقق منهما .

وجاء سبحانه فى مقدمة الإهلاك ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ

﴿ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

وهكذا نرى أن الإهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله .

نحن نعلم أن السنة هى العام . . أى من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تطلق ـ أيضاً ـ على الجدب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعائه على قومه :

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »(١)

أى أن ينزل بهم سبحانه بعضاً من الجدب ليتأدبوا قليلاً .

ويقال: « أسنت القوم » أى أصابهم قحط وجدب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجدب .

ولماذا سماها سنة ؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقه بالشرّ قليلة فى الكون ، وسبحانه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يبتليهم فى لحظة ، فإذا ما ابتلاهم فى وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا . فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المفجعة ؛ لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذى يعد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة التى عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء ؟ ونجد أن أيام الرخاء هى أكثر من أيام البلاء : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ .

وعرفنا أن السنين ـ كما قلنا ـ تعنى الجدب والقحط ، أما قوله سبحانه : « ونقص من الثمرات » فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، أو كان الجدب

(١) رواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى المنافقين ، وأحمد ١ ـ ٢٨٠ ، ٤٤١

والقحط فى البادية ، أما « نقص الثمرات » فكان فى الحضر ، ويقال: إن النخلة الواحدة فى الحضر كانت لا تطرح فى السنة إلا بلحة واحدة . ولماذا هذه البلحة ؟ لأن أسباب رحمته سبحانه يجب أن تبقى فى خلقه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لا نقطع نسل النخيل ؛ لذلك يُبقى الله أسباب رحمته لنا .

إننا نرى فى واقعنا أنهم مهما حاولوا أن يستزرعوا فواكه بدون بذور بواسطة التقدم العلمى المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا ؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الثمار بلا بذور ثم أكلناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً ؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق فى استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الثمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تنضج بذرتها ، فأنت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها . لكن حين يسودّ بذرها ويكون صالحاً لأن تعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصير مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفى هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العاصين نجده سبحانه يستبقى الرحمة معهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ يعنى أن على الإنسان أن يتذكر أنه الخليفة فى الأرض وأنه غير أصيل فى الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذى يفسد العالم أن الإنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، وسننها الكونية ويحرث ويبذر ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويستخرج المياه من الآبار ينسى أن كل ذلك « أسباب » ، ولا يتذكر المُسبِّب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال فى حياتنا اليومية أن الإنسان منا إذا جاء ليفتح صنبور المياه فى البيت فلم يجد ماءً فيتجه أول ما يتجه إلى محبس المياه الذى يتحكم فى مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سدد ، وإن وجده سليماً ، يبحث هل أنبوبة وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أو لا ؟ وإن كانت ماسورة المياه سليمة فهو يبحث عن الخلل فى

آلة رفع المياه ، ويظل يبحث في الأسباب الكثيرة ، وقديماً لم تكن المياه تأتى إلا من الآبار وعندما لا يوجد في البئر ماء يقول العبد : يا رب اسقنى . والحضارة الآن أبعدتنا بالأسباب عن المسبِّب .

والحق قد أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يلتفتوا إلى المسبِّب ويقولون : « يا رب » ويقول القرآن عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالإنسان يذكر المسبِّب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات الحياة ، فإذا امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان : يارب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ليذكروا خالقهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) ﴾

والحسنة إذا أطلقت فهى الأمر الذى يأتى من ورائه الخير . ولكن الحسنة مرة تكون لك ، ومرة تُطْلَب منك ، فالحسنة التى لك فى ذاتك أولاً أن تكون فى عافية وسلام ، ثم الحسنة فى مقومات الذات ومقومات الحياة ، وهى فى النبات ، والحيوان ، والخصب والثروة . والحسنة المطلوبة منك هى أيضاً لك . فسبحانه يطلب منك عمل شىء يورِّثك فى الآخرة حسنة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذه هى الحسنة التى تعطى الإنسان خيراً فيما بعد . إذن فالحسنة التى فى ذاتك من عافية وسلامة أو فى مقومات الذات من ثمرات وحيوانات وخصب وأعشاب وثراء فكلها موقوتة بزمن موقوت هو الدنيا . والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود . فأى الحسنات أرجح وأفضل بالنسبة للإنسان ؟ . إنها حسنة الآخرة .

وقوله الحق : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أى جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الرزق يقولون : « لنا هذه » أى أننا نستحقها ؛ فواحد يقول : أنا أستحقها لأننى رتبت لها وأتقنت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون :

﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

وأجرى عليه الحق التجربة ، فمادام يدعى أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذى عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته . وهم قالوا عن الحسنات التى يهبها الله لهم : « قالوا لنا هذه » أى نستحقها ، لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج . وجرت العادة قديماً بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض ، ثم يبذرون الحب وينتظرون الثمار . فإن جاءت لهم سيئة مثل أخذهم الله لهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى .

﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

(من الآية ١٣١ سورة الأعراف)

فإذا ما جاءتهم سيئة يطَّيَّرون أى يتشاءمون لأن الطيرة هى التشاؤم ، وضده التفاؤل ، ويقال : « فلان طائره نحس » ، و « فلان طائره يمن وسعد » . وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويزجره ويثيره ، فإن طار يميناً فهذا فأل حسن ، وإن طار يساراً فهذا فأل سيىء ،

والحق هنا يوضح : لا تظلموا موسى ، لأن شؤمكم أو حظكم السيىء ليس من موسى ؛ لأن موسى لا يملك فى كون الله شيئاً ، وإنما المالك للكون هو رب موسى . وكأن الحق يريدهم أيضاً ألا يفتنوا فى موسى إن صنع شيئاً يأتى لهم بخير ، وهنا يقول لهم لا تتطيروا بموسى ، لأن طائركم من عند الله .

ولأن أحداث الحياة صنفان : حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذى لم يذاكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة . وهنا لا غريم لهذا الإنسان ، بل هو غريم نفسه . وهناك شىء يقع عليك ، واسمه حدث قهرى ، فالإنسان فى الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره فى شىء . وإمَّا أحداث قدرية تنزل بالإنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإنسان ؛ لأن الإنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء ، وإلى عاجل الأمر فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر . ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل .

مثال ذلك : أن يكون للإنسان ابن نجيب وذكى وترتيبه دائماً من العشرة الأوائل ، ثم جاء فى ليلة الامتحان أو فى يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول : إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، وسبحانه منزه عن العبث ، بل حكيم ولابد أن له حكمة فى مثل هذه الأمور . وبعد مدة تتبين الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين الحسود . وحدث له ما يكره ، فكأن الله يصنع له تميمة يحميه بها من الحسد . وقديماً حين كانوا يصنعون للطفل الجميل « فاسوخة » ، ولا يهتمون بنظافته ولا بملابسه ، لماذا ؟ يقال حتى لا تتجه إليه عين العائن الحاسد .

وأقول : وما الذى يدريك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطارىء ليرد عنه العين ، ويُسكت الناس عنه ؟ وما الذى يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذى يدخله الكلية التى يريدها ، ثم يستذكر فى العام التالى وتكون المذاكرة سهلة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك

على أنك لم تنجح فى العام السابق وأن الله أراد بك خيراً . . لتبذل جهداً وتنجح وتنال المجموع الذى أردته لنفسك .

إذن فالمقادير التى تجرى على الناس بدون دخل لهم فيها ، فلله فيها حكمة ، وهنا يقال : ﴿ طائركم عند الله ﴾ ، أما إن كان للإنسان دخل فيما يجرى له فيقال : طائرك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك .

﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ألم يتطير اليهود فى المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجىء هذا الرجل ، ولم يتفهموا حكم الله . لقد كانوا سادة فى الجزيرة ؛ لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق التجارية ، وتعاملوا فى الربا وتجارة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ، وأراد الله أن يشغلهم بأخذ شىء من أسبابهم ويهد كيانهم ليلفتهم إلى أنهم خرجوا عن المنهج إلى أن هناك رسولاً قد جاء بعودة إلى المنهج .

وقوله الحق : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يفيد أن هناك قلة تعلم . فما موقف هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة ؟ . كان موقفهم هو الصمت خوفاً من الطغيان ؛ لأن الطاغية أجبرهم وقهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على باطل ، ونرى فى حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور ويعلمون الطغيان ولكنهم لا يتكلمون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

أى وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام : أى شىء تأتينا به من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك ، وسموا ما جاء به موسى « آية » استهزاء منهم وسخرية . وكل هذه مقدمات تبرر الإهلاك الذى قال الله فيه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وأعلنوا أن ما جاء به موسى هو سحر على الرغم من أنهم رأوا السحرة الذين برعوا فى السحر وعرفوا طرائقه وبذّوا فيه سواهم قد خروا ساجدين وآمنوا ، كيف يحدث هذا والسحرة كلهم جُمِعوا إلى وقت معلوم ؟ وشهد كل الناس التجربة الواقعية التى ابتعلت فيها عصا موسى كل سحر السحرة فآمنوا وسجدوا ، فكيف يتأتى لمن لا يعرفون السحر أن يتهموا موسى بالسحر ؟ وكيف يظنون أن ما يأتى به من آيات الله هو لون من السحر ؟ . إنهم يقولون كلمة « مهما » وهى تدل على استمرارية العناد فى نفوسهم مثلما يقول واحد لآخر : لقد صممت على ألا أقبل كلامك ، فيكرر الرجل : انتظر لتسمع حجتى الثانية فقد تقنعك ، فيقول : مهما تأتنى من حجج فلن أسمع لك ، وهذا يعنى استمرارية العناد والجحود والتمرد ويقدمون حيثيات هذا الجحود فيقولون :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وإذا كانوا يظنون أن آيات الله التى مع موسى من السحر ، فهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ . ولو كانت المسألة سحراً لسحركم وانتهى الأمر . وقلنا قديماً فى الرد على الذين قالوا : إن محمدًا يسحر الناس ليؤمنوا به ، قلنا إذا كان هو قد سحر الناس ليؤمنوا به ، فلماذا لم يسحركم لتؤمنوا وتنفض المسألة ؟ إن بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحر .

وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرطاً ، وله جواب ، ويقول العلماء : إن أصلها « مه » أى كُفَّ عن أن تأتينا بأية آية فلن نصدقك . وهذا يعنى أن هناك إصراراً وعناداً على عدم الإيمان .

ويبين الحق عقابه لهم على ذلك :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وكلمة « الطوفان » يراد بها طغيان ماء ، والماء - كما تعلم - هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بذاتيتها ، بل بتوجيهات القادر عليها ، وعندما ننظر إلى الطوفان الذى أغرق من قبل قوم نوح ، ولم ينج أحد إلا من ركب مع نوح فى السفينة ؛ وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على طغيانهم . وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بنو إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقى فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ، ويظل هكذا ، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام ، لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بنى إسرائيل لا تلمسها المياه ، وهذه معجزة واضحة ، لقد عمّ الطوفان وأراد الحق أن ينجى بنى إسرائيل منه دون حيلة منهم حتى لا يقال آية كونية جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة ، لكن الطوفان جاء لبيوتهم ولم يلمس بنى إسرائيل .

وقال الرواة : إن الطوفان دخل على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى ، وقال له : كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان . لكنهم عادوا إلى الكفر .

وجعلْ الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح ربنا : أنا عذبت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعطينا ملامح تشعرنا بصدق القضية ، فيهبط السيل فى أى بلد ويهدم الديار ويغرق الزرع والحيوانات ، لنرى صورة كونية ، وكذلك الجراد يرسله الله على فترات فيهبط فى أى وقت من الأوقات ، ونقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التى حكى الله عنها ، فلو لم يوجد جراد ولا طوفان لكنا عرضة ألا نصدق . وابتلاهم الله بالقمل كذلك .

« والقُمَّل » هو غير القَمْل . فالقَمْل هو الآفة التى تصيب الإنسان فى بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذى يصيب الحبوب ، ومفردها قُمَّلَة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التى تهلك النبات والحرث ، وحين نراه نفزع ونبحث عن تخليص الزرع منه باليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للخلق ، وهى مجرد تنبيه وإرشاد ولَفْتٌ للالتفات إلى الحق .

وكذلك يرسل الله عليهم « الضفادع » ، وعندما يضع أى إنسان منهم يده فى شىء يجد فيها الضفادع ؛ فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والمياه التى يشربها يجد فيها الضفادع !! وإن فتح فمه تدخل ضفدعة فى الفم !! . فهى آية ومعجزة ، وكذلك « الدم » ، فكان كل شىء ينقلب لهم دماً .

ويقال:إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بنى إسرائيل وقالت لها : خذى الماء فى فمك ومُجيه فى فمى ، كأنها تريد أن تحتال على ربنا وتأخذ مياها من غير دم ، فينتقل من فم الإسرائيلية وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التى هى من قوم فرعون صار دماً .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ مفصلات ﴾ أى لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعة مع بعضها البعض لتفزعهم دفعة واحدة وتختبرهم أيعلنون الإيمان أم لا ؟ بل جاء سبحانه بكل آية مُفصلة عن الأخرى ؛ فلا توجد آية مع آية أخرى فى وقت واحد ، أو جاء بها علامات واضحات فيها مواعظ وعبر ، مما يدل على موالاة الإنذارات للرغبة فى أن يَذّكروا ، وأن يرتدعوا ، فلو اذكروا وارتدعوا من آية واحدة يكف عنهم سبحانه البأس .

وأرسل سبحانه الآيات وهى : طوفان ، جراد ، قمل ، ضفادع ، دم ، هذه آيات خمس فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ومن قبل قال الحق إنه

أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبعاً ، ومن قبل كانت عصا موسى التى تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثمانى آيات ، وكذلك « اليد البيضاء » التى أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هى : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات . . هى عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلطها الله على مَن يريد إذلاله ، ويبتلى الله بها نوعا من الناس ولا يبتلى بها قوماً آخرين . فماذا كان موقفهم من الآيات العجائب ؟ نجد الحق يذيل الآية : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا فى حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذى عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون فى عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقدية هى أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبولُ الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطى الإيمان بالله .

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة الأعراف)

أى ادع ربّك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسوله المؤيّد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ماجئت به ولنرسلن ونطلقن معك بنى إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم فى أحط وأرذل الأعمال ، ولكنهم فى كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

فكأن لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين : بين قوله الحق : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ وبين قوله السابق : « ادع لنا ربك بما عهد عندك لأن كشفت عنا الرجز ﴾ ، فمن إذن يكشف الرجز ؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يعرفها الحق ، فهو القائل : ﴿ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ .

والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه :

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾